# قضايا الأدب والأدباء

## فرنسوا باسيلي

## نحو تخليد الظاهرة الحزيرانية :
## دعوة لتقييم ادب ما بين الحربين

### • تعريف :

أدب ما بين الحربين المقصود به هنا هو ذلك النتاج الادبي ـ الفكري الذي ظهر في فترة السنوات الستة ما بين هزيمة يونيو ٦٧ وصحوة اكتوبر ٧٣ ، والذي تفرد وتميز بسمات شديدة الحدة والخصوصية وبالغة الاهمية ساهمت معا في تشكيل ما يمكن تسميته « بالظاهرة الحزيرانية » .. انه باختصار « رد الفعل الادبي » لهزيمة ٦٧ الهائلة وللواقع الذي انتجها . فاذا ما نظرنا الى حزيران باعتباره « فعلا » فادحا عصف بالواقع العربي وبالانسان العربي ، فان « رد الفعل » الذي استغرق السنوات الست التالية للفعل ، والذي وقع على عدة مستويات ادبية وفكرية وفنية ، والذي تكونت حركته العامة من ايقاعين أساسيين ، هما ايقاع الحزن وايقاع الغضب ـ النقد ، متنكرة في الاشكال الفنية الاساسية من مسرح وشعر وقصة ومقال ،رد الفعل الادبي هذا بمختلف أبعاده هو ما نسميه بالظاهرة الحزيرانية .

تبرير استخدامنا للكلمة « ظاهرة » في هذا المجال هو نفس تبرير استخدامها في المجال الفيزيائي العلمي ، حيث يستخدم المصطلح « ظاهرة طبيعية » لتمييز مجموعة من العناصر التي تجتمع تحت ظروف خاصة منتجة حدثا متفردا ومميزا وخارجا عن المألوف والمعروف من القوانين الطبيعية السابقة ، مما يستدعي رصد الظاهرة ودراستها لاكتشاف اسرارها وقوانينها الخاصة ، وبذلك يمكن نقلها من منطقة العجب والدهشة الى منطقة المألوف والمفهوم جنبا الى جنب بقية المعارف الانسانية . والنتاج الحزيراني ، بهذا المفهوم ، « ظاهرة » متفردة ومتميزة وخارجة عما سبقها من النتاج الادبي وستختلف بالضرورة أيضا عما سيعقبها من النتاج الادبي .

### ـ لماذا تخليد الظاهرة الحزيرانية ؟

التخليد هنا ليس بمعنى ضمان استمرار وجود الظاهرة ، لكنه بمعنى ادخالها في التراث لضمان استمرار الاستفادة فيها. انه محاولة ـ ولنعد للفيزياء ـ نقل الظاهرة الادبية من منطقة الدهشة والسر الى ألفة وطمأنينة التراث . وهذا يتطلب رصد الظاهرة ودراستها وتحليلها وتقييمها توطئة لضم الجوهري منها الى مكنوز التراث ، والهدف من ذلك ليس مجرد اثراء التراث الادبي ـ الفكري بصفحة خاصة جديدة ولكن فوق ذلك واهم : ضمان الاستفادة المباشرة ـ فنيا وتاريخيا ـ من الظاهرة الحزيرانية واستخلاص ما بها من اتجاهات وابعاد جوهرية يمكن ان تسهم في تشكيل المستقبل الادبي ـ الفكري في العالم العربي.

ان الهدف من اية دراسة ـ بصفة عامة ـ هو عدم السماح للتجربة او للظاهرة تحت الدراسة بالافلات دون تحويلها الى خبرة انسانية عامة. وفي مجال الدراسات العلمية الطبيعية لا يختلف احد على ان البحث العلمي هو أساس التقدم العلمي . أما في المجال الادبي فان دور الدراسة لايزال متنازعا عليه حيث يبدو ان الموهبة المتألقة هي أساس التطور الادبي وانه يمكنها الاكتفاء بنفسها دون حاجة الى الدراسة الادبية . قد يرجع هذا الفارق الى حضور المستوى الموضوعي الذي تقع عليه الدراسة العلمية وغيابه في حالة الدراسة الادبية ، حيث تصبح الموضوعية استحالة بديهية في الاخيرة ما دام الادب في الاساس تفاعلا شخصيا وتعبيرا شخصيا عن ذلك التفاعل . تظل الدراسة الادبية في وضع محرج تجاه شبهة « الشخصية » المعلقة فوقها . وبسبب غياب المقياس الموضوعي المحايد الذي يمكن اخضاع العمل الادبي تقع خارج هدفي من هذا المقال (١) . رغم هذا القصور في الادبي تقع خارج هدفي من هذا المقال (١). رغم هذا القصور في طبيعة الدراسة الادبية فلا شك أنها قد حققت تقدما كيفيا ضخما نحو محاولة الالتزام بالموضوعية والمنهجية والتطهر من « الشخصية »والعمل على استخدام أساليب نقدية متقدمة ومرهفة ، واستعارة اساليب مستخدمة في دراسة علوم أخرى لتطبيقها ببراعة في المجال الادبي (٢) الرغبة في تحويل « الظاهرة الحزيرانية » اذن الى خبرة أدبية نضيف اضافة هامة الى التراث والى المستقبل ـ الادبي في وقت واحد هي أساس الدعوة الى تقييم أدب ما بين الحربين . وتوفر الاساليب

---

(١) لمست هذه المشكلة لمسا سريعا في مقال سابق بعنوان «دراسة علمية لمؤتمر أدبي » ـ الاداب ـ العددان الخامس والسادس ( مايو ويونيو ) ١٩٧٣

(٢) انظر استعارة خالدة سعيد للاسلوب الهندسي وتطبيقه في دراستها البارعة لقصيدة ادونيس « هذا هو اسمي »ـ«مواقف» العدد السابع ـ وكذلك استخدام منير العكش للاسلوب الاحصائي في دراسته عن اللغة الشعرية بنفس العدد من « مواقف » . وأيضا استخدامي للاساليب العلمية والاحصائية في تقييم مؤتمر الادباء العرب التاسع بتونس في المقال المشار له في هذا الهامش.

النقدية المتقدمة لدى نقادنا الحديثين كاضافة هامة ومثرية لما يحظى به نقادنا الكبار من موهبة وخبرة وبصيرة نقدية هائلة ، تشجع بالتاكيد على المناداة بهذه الدعوة والتطلع الى امكانية تحقيقها . اننا لا نتحدث هنا عن رواية واحدة او ديوان شعر أو مجموعة قصصية ، ولا عن شاعر او كاتب كبير او شاب ، ولا عن ادب فلسطيني او مصري او سوري .. اننا نتحدث عن جميع هؤلاء ، عن النتاج الادبي والفكري الذي ظهر بالعربية في السنوات الحزيرانية الست وهو نتاج يلبس عدة أشكال فنية ، ينطلق من عدة بوتقات اقليمية مختلفة ، ويصدر عن شرائح وقطاعات متنوعة من منتجي الادب والفكر .. الحصاد هائل اذن والفعلة ، نسبيا ، قليلون . لكن ضخامة العمل لا يجب ان تقعدنا عن القيام به . ان العالم العربي مقبل ، أو يجب ان يكون مقبلا ، على « عصر نهضة » يشارك فيه الانسان العربي – بعد غيبة طويلة – في بناء عالم افضل ( ليس فقط على الارض ولكن ايضا على القمر وجوبيتر وعطارد ... الخ ) ، وامام مسؤولية صنع هذه النهضة المقبلة ، لا يمكننا ان نملك رفاهية الاستغناء عن الدراسات والابحاث – الادبية والعلمية – في كافة مجالات النشاط الانساني . تصور أنه يمكننا الاكتفاء بما صدر من شعر وقصص ومسرح ورواية ، وما صاحب ذلك من الاعمال النقدية المتفرقة التي تركز على ذلك الديوان أو تلك القصة ، هو تصور خطر ان يحمل طبيعة الاستسهال ويشي بعدم الجدية التي تتنافض مع مسؤولية اشعال نهضة فكرية تواكب النهضة المادية التي يقبل ، او يجب ان يقبل ، عليها العالم العربي الان . ذلك لان وراء تلك الاعمال الادبية المتفردة مناخا واحدا هو مناخ حزيران ، يبقى علينا ان نكتشفه تماما ونعين دوره وأثره ، وهناك أسئلة فكرية وانسانية هامة تتعلق بالظاهرة الحزيرانية يبقى علينا محاولة الاجابة عليها .

وبعد ذلك التقديم والتبرير للفكرة التي يحملها هذا المقال ، فانني أشعر أنه يمكنني المغامرة بعرض بعض النقط والافتراضات ، واذا سمح لي بأن أستعير من عملي اليوم بعض التصورات الهندسية فانه يمكنني أن أقول ان هذه الافتراضات تمثل نقطا في الفراغ يمكن ، لو ربطنا بينها بخيوط ، ان تكون هيكلا بنائيا يصلح أساسا ، نظريا ، تقوم عليه عملية التقييم المقترحة . وتمنح هذه النقط الحرية لغيري بأن يصل بينها بخطوط مختلفة او بأن يتجاهل بعضها باعتبارها غير هامة أو باضافة نقط جديدة لتكوين قاعدة مختلفة كأساس نظري لعملية التقييم . وهذا ما اقصده بالضبط اذ انني لست متعصبا لافتراضاتي هذه ولست مرتبطا عاطفيا وأرحب بكل رغبة في تصحيحها أو تغييرها أو الاضافة اليها .

– افتراض ١ :

تحتوي الدعوة الى تقييم الظاهرة الحزيرانية على افتراض ضمني بأن تلك الظاهرة قد اكتملت وتمت . اذ أننا لن نقدم على دراسة ظاهرة ما بكافة ابعادها لو كانت ماتزال في طور النمو والتغير لان هذا سيمنعنا من التوصل الى أية استنتاجات نهائية يمكن الوثوق بها . وتبرير افتراضي هذا هو اني اعتقد ان « الفعل » الواقعي قد اثبت قدرته الفائقة وسلطته الضخمة في التأثير على المناخ الادبي والفكري. وهذا بالضبط هو اساس ظهور الادب الحزيراني . وكما ابتدا ذلك الادب كرد فعل لحزيران ، فانه لا بد سينتهي كرد فعل لاكتوبر . ذلك لان اكتوبر كان نهاية حادة للفصل الحزيراني في التاريخ العربي . حيث تصبح وسمات ذلك الفصل لا محل لها بعد انتهائه . سمات اساسية كانت واضحة في الفصل الحزيراني ، مثل الحزن العميق واليأس والسخط والاحباط والغضب ، ستتبدد بلا شك بعد اكتوبر الذي منح املا وفتح افقا وامكانيات جديدة . بالطبع لن ينتهي الحزن والغضب من الادب العربي – ولا من اي ادب آخر – ولكنه عندئذ سيكون نابعا من نبع اخر غير حزيران وبالتالي لا يدخل في الظاهرة الحزيرانية . انتهاء واكتمال الفصل الحزيراني في الادب هو اذن افتراض اعتقد انه يمكننا الاتفاق عليه .

– افتراض ٢ :

هنالك دائما الفكرة المنطقية والتاريخية التي تقول بان اي ادب لا يمكن ان ينشأ فجأة من العدم . وان اي ادب ، مهما اختلف وتميز ، فهو امتداد طبيعي وشرعي للادب السابق له ، ونسل للتراث الادبي الذي ولد فيه . وعلى هذا فان الادب الحزيراني ليس الا امتدادا لادب ما قبل حزيران وتصبح محاولة فصل ذلك الاب المحدد بفترة زمنية ، هي السنوات الست ، محاولة تعسفية ، وربما سطحية لا تنظر الى الاعماق . فكيف لنا ان نواجه هذه الفكرة المعقولة ؟

اولا علينا ان نعترف ان بعض النتاج الحزيراني كان فعلا امتدادا طبيعيا لادب ما قبل حزيران .ربما كان اهم نموذج لهذا هو شعر المقاومة الفلسطينية . وبالتحديد انتاج محمود درويش وسميح القاسم الذي اراه تطورا شعريا طبيعيا كان سيحدث بحزيران او بغيره . وربما كان تفسير ذلك انهما كانا ملتصقين بالقضية التصاقا مصيريا منذ تفتحهما الشعري وقبل حزيران بزمن ولذلك لم تتغير طبيعة موقفهما الشعري بعد وقوع حزيران. ولمحمود درويش مقطوعة شعرية تحمل هذه الفكرة . شعر المقاومة الفلسطينية اذن لا يدخل ضمن اطار الظاهرة الحزيرانية بينما تدخل « هوامش على دفتر النكسة » مثلا اطار الظاهرة لانها قصيدة لم تكن لتكتب لولا حزيران . ولانها نابعة منه مباشرة .

بعد هذا الاعتراف الاولي بانطباق فكرة الاستمرارية والتواصل في الادب على بعض الانجازات الادبية التي وجدت في فترة ما بين الحربين ، فان هذا يمنعنا من التاكيد على ان الجزء الاغلب من الانتاج الادبي في تلك الفترة كان انتاجا حزيرانيا . وبذلك المعنى فقد كان انعراجا خاصا في خط التطور الطبيعي للادب العربي الحديث . ظهر – الى حد بعيد – فجأة ، ربما بنفس الدرجة التي وقع بها حزيران فجأة . وتميز بخصائص وقسمات ناتجة عن حزيران وحائمة حوله في دوران خاضع لقوة جاذبيته الباهظة .وعلى هذا فانه يمكن ان نقول – في افتراض ٢ – ان الظاهرة الحزيرانية بدأت فعلا بحزيران .

– افتراض ٣ :

بعد الانتهاء في الافتراضين ١ و٢ من رسم حدود الظاهرة الحزيرانية وتبرير تلك الحدود والدفاع عنها، نتجه في الافتراض الثالث الى طبيعة الظاهرة نفسها . وهنا نستطيع ان نزعم ان الظاهرة الحزيرانية لم تكن ذات طبيعة واحدة وانما كانت لها طبيعتان متلازمتان ، الاولى هي الحزن والثانية هي الغضب .– ويكاد ان ينقسم النتاج الادبي في تلك الفترة الى هذين القسمين دون ان يتبقى بعد ذلك اي فائض من القسمة . اي ان الحزن – ( وادخل تحته اليأس والاحباط والفكاهة السوداء والعبث الوجودي ) – والغضب – ( وادخل تحته ايضا ، وربما اساسا ، النقد ) ، كانا هما العطاء الاساسي للظاهرة الحزيرانية .

– افتراض ٤ :

اننا في فحصنا للنتاج الحزيراني باشكاله الفنية المختلفة ، قد نستطيع التطرق الى تساؤل فني هام يقع في قلب قضية العلاقة بين الشكل والمضمون في العمل الادبي . وذلك السؤال هو : هل هنالك اشكال فنية معينة اكثر استعدادا من غيرها لمضامين معينة ؟ وبصورة اخرى .. هل اختلف الشعر عن القصة القصيرة مثلا في نصيب كل منهما من الحزن ومن الغضب ؟ هل مال النتاج الشعري ، مثلا، اكثر نحو الحزن ، بينما مال النتاج المسرحي اكثر نحو الغضب؟ واذا كان هذا قد حدث – وهذا يمكن تحقيقه باجراء عمليات احصائية بسيطة – فلماذا حدث ؟ هل الشكل الشعري وطبيعته الفنائية تجعله مناسبا لطبيعة الحزن والشجن ؟ وهل الشكل

المسرحي ، بامكانياته الواقعية المتحركة الصاخبة ، اكثر تقبلا واستعدادا هيكليا وغريزيا لمضمون الغضب والنقد ؟

محاولة اجابة هذه التساؤلات التكنيكية، من خلال الحصاد الحزيراني المتوفر باشكاله الفنية ومضامينه المختلفة ، لا شك سيساهم في تعميق فهمنا للعلاقات الداخلية وللقوانين البنائية في العمل الادبي .

ـ افتراض ٥ :

محتميا في حقيقة ان ملاحظاتي هذه هي « افتراضات » اقدمها للبحث والدراسة ، وفي تقريري بانه لا تربطني بافتراضاتي هذه اية علاقة عاطفيةخاصة ، انطلق من ذلك مطمئنا نحو التوغل اكثر في ميدان المجازفة ،فاغامر بتقديم الافتراض التالي :

ان توزيع طبيعتي الحزن والغضب في النتاج الحزيراني لم يكن فقط توزيعا فنيا ،على اشكال فنية مختلفة تفاوتت في امتصاصها لكل من المضمونين الحزيرانيين ( افتراض ٤ ) ، ولكنه كان ايضا توزيعا جغرافيا ، تفاوتت فيه العواصم العربية المنتجة للادب ( القاهرة وبيروت وبغداد اساسا ) في ميلها الى كل من الحزن او الغضب . فاذا اخذنا الشعر الحزيراني في مصر ، نجده شعرا مفعما بالحزن بالدرجةالاولى.بينما يمكن انتقول انالشعر الذيظهر في لبنان والعراق ، كان بالدرجةالاولىشعرا غاضبا.هذا ليسمعناه انه لم يكن شعرا حزينا ايضا ، ذلك لان الحزن هو الدرجة الاولى من الانفعال والتي تؤدي الى الدرجة التالية لها وهي الغضب . ما ازعمه هو ان الشعر في مصر وقف ، في معظمه ، ـ ويجب ان تتذكر انني اتحدث عن « القاعدة » واعيا ان لها دائما « شواذ » ـ عند الدرجة الاولى من الانفعالوهي الحزن . السمة الغالبة على شعر مصر ما بين الحربين هي الحزن . لا نجد لدى الشعراء المصريين ذلك الغضب المتالق ولا القسوة على النفس ولا الرفض الفلسفي الشامل الذي نجده مثلا في القصيدة الرهيبة « هذا هو اسمي » لادونيس .

هذه الظاهرة في الحقيقة ربما تكون ابعد من حزيران واشمل من الشعر في مصر . ذلك لان الادب المصري عامة ادب يعرف الحزن لكنه يجهل الغضب . وبالتالي كان رد الفعل لحزيران شحنة جديدة من الحزن ولا غضب . وفي نفس الوقت فان الرومانسيةالمصرية التي تسود الشعر والقصص القصيرة ـ عدا بعض الاستثناءات ـ كانت وما تزال عاجزة عن الشعور بالغضب وبالتالي عاجزة عن افرازه فنيا .

يمكن اذن ان تتجه بعض الدراسات المهتمة بالظاهرة الحزيرانية الى هذا الاتجاه الذي يقترحه الافتراض الخامس . محاولة اثبات،او دحض ، الادعاء بان الاختلاف الجغرافي ـ الاجتماعي ـ السياسي ـ بين العواصم العربية وادبائها ، ادى الى اختلاف في مضمونالاعمال الادبية المطروحة ، وفي موقف كل منها من الطبيعتين الاساسيتين للظاهرة الحزيرانية ، الحزن والغضب .

ـ افتراض ٦ :

ان الظاهرة الحزيرانية حققت عدة آثار هامة وكانت لها نتائج فعالة ساهمت ، بجانب العوامل الاخرى السياسية والاجتماعية ـ في التغلب على حزيران وتخطيه وتجاوزه .وهذا ، في رأيي ، هو اخطر الافتراضات ، فلنضعه الان في صورة تساؤل :

● هل كان للنتاج الادبي والفكري الحزيراني اثر ايجابي ساعد على تجاوز حزيران والوصول الى اكتوبر ؟ ربما يحسن بنا الاعتراف بانتماء هذا التساؤل الى القضية الاشمل التي تتعلق بدور الادب في المجتمع وبقدرة الادب على التاثير في الواقع .

الاجابة على هذا التساؤل ، فيما يتعلق بالنتاج الادبي من شعر وقصة ومسرح ، اصعب من ان نحصل عليها بدون دراسة متعمقة لذلك النتاج الادبي يمكننا بعدها معرفة مدى مساهمة الادب الحزيراني في تجاوز حزيران . وهذه مهمة نقادنا الابطال وهي ليست بالمهمة السهلة .

اما بالنسبة للنتاج الفكري الحزيراني واثره في تجاوز حزيران والوصول الى اكتوبر فانالاجابة تبدو اسهل منها فيما يتعلق بدور الادب . ذلك لان الفكر العربي قام في خلال السنوات الحزيرانية الست بحركة نقد للذات وتحديق في عيوب النفس وفي التشوهات العربية لا يكاد ان يكون لها مثيل في تاريخ الفكر العربي . لم يحدث قبل حزيران ان وقف العقل العربي محدقا في نفسه بمثل هذه القسوة والحدة رافضا عاهاته الخاصة متسائلا عن الخلاص في حرارة والم وغضب (٣) . انني هنا افترض ان حركة نقد الذات هذه اثرت تاثيرا ايجابيا ، سواء مباشرا او غير مباشر، في تغيير كثير من الاساليب الفكرية التي كانت سائدة قبلحزيران. انني لا اقصد هذه الحركة على النتاج النقدي والفكري فقط وانما اضم لها عدة ظواهر اخرى مصاحبة مثل ظهور مجلات فكرية جديدة جادة في العالم العربي ، واهمها مجلة « مواقف » ، ومثل التطور الهام في موقف مجلة « الاداب » وتحركها نحو موقع متقدم وقيادي في معركة حرية الفكر العربي . ومثل « بيان الادباء » الذي وقع عليه عدد من ادباء مصر وعلى رأسهم توفيق الحكيم مطالبين اساسا بحرية الكاتب . ثم ظهور مجلات وجرائد عربية خارج الوطن العربي ، واهمها جريدة « مصر » التي تصدر في نيويورك ونشرة « الوطن » التي تصدر في بنسلفانيا ، واهتمامهما المشترك بقضية الحرية العربية ـ فكريا وسياسيا ـ كل هذه شكلت معا تلك الحركة الفكرية الناقدة التي ازعم انها ساعدت على تجاوز حزيران فكريا وحضاريا . ويبقى على الابحاث المتعمقة اثبات ، او دحض ، افتراضي هذا .

* * *

هذه الافتراضات الستة تشكل معا اساسا يمكن ان تقوم عليه عملية تقييم الظاهرة الحزيرانية بكافة ابعادها . يبقى الباب مفتوحا لمزيد من الاجتهادات في هذه المرحلة الاولية ويمكن لمن هم اكثر مني معرفة بالنتاج الحزيراني اضافة عدة افتراضات اخرى او تصحيح افتراضاتي الستة هذه . ان همي الاول ليس هو ان اكون مصيبا في افتراضاتي هذه وانما ان تساهم هذهالافتراضات في اشعال الاهتمام بعملية التقييم والدراسة الجادة الشاملة للنتاج الادبي والفكري فيما بين الحربين وفي الدور الذي لعبه ذلك النتاج . انني اعرف ان دعوتي هذه طموحة لكنني اشعر انها واجبة وانها ، رغم صعوبتها ، ممكنة ومفعمة بالثمار .

نيويورك

---

(٣) اعرض نموذجا واحدا يشذ شذوذا فذا عن هذا التصريح وذلك هو نتاج الكاتب المصادر والمحاصر عبدالله القصيمي . ذلك لان القصيمي وقف محدقا في الانسان العربيوالعقل العربي طويلا قبل حزيران . اعماله الصادرة قبل حزيران ، مثلها مثل تلك الصادرة بعده ، تحمل عنفا نقديا لا مثيل له في العربية ضد المستويات العقلية ، والانسانية عموما ، التي يتحرك عليها الانسان العربي.